إسْتِشْرافُ المُسْتَقْبلِ
وَنِهايَةُ التّاريخ في ضوْءِ تَقْريراتِ القرآن الكريمِ

السيد خليل الشوكي

محافظة ميسان - جمهورية العراق

فحوى البحث

يقرر السيد الباحث في مقدمة بحثه (الذي ننشر فصوله المهمة)، أن استشراف المستقبل نابع من الاسرار التي جُبِلت النفس الانسانية عليها لأنها توّاقة لمعرفة المستقبل. ومن خلال مسيرة تاريخ أمم وشعوب مضت، يضرب السيد الباحث أمثلة من أقوام سبأ وعاد وثمود ونوح ولوط وشعيب وغيرهم ليقرر أن ليس بالإمكان لدولة أو حضارة أن تدعي جزافاً انها ستبقى خالدة ابد الدهر وهي تحافظ على قوتها واقتدارها فلكل حضارة عمر محدود لا تتقدمه ولا تتأخر عنه.

ويخلص السيد الباحث الى حقيقة إصلاح ما فسد من هذا العالم على يد الامام المهدي المنتظر ظهوره حين تُملأ الارض ظلما وجورا مستدلا على كل ما اورده من قصص وآراء وأفكار بآيات من القرآن الكريم.

تمهيد

إن غريزة معرفة المجهول، وحب الاستطلاع، واستشراف المستقبل، من الأسرار التي جُبلت النفس الإنسانية عليها، فالإنسان تواق لمعرفة مستقبله وكشف المجهول من حياته، وهذا دليل النقص، قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل: ٧٨].

فالمستقبل هو الجزء الوحيد في حياة الإنسان الذي يمكن تغييره نحو الأفضل، وهو حق مشروع لكل إنسان يجب استيفاؤه بأية وسيلة ممكنة، مع الأخذ بعين الاعتبار حالة الاعتدال والوسطية، وكبح جماح الشذوذ والإفراط، فالإنسان مهما تقادمت به التجارب والرؤى المستقبلية، وبات يرتقي سلّماً من المجد الذي يقطع معه أسار العلاقة مع الأخر -أفراداً أو شعوباً -أو يقصيه عن ماضيه، فإنه يبقى أسير علائق إنسانية وروابط تاريخية، يستحيل معها التحايل على واقع يرافقه مرافقة الشيء لظله، فالإنسان بما هو إنسان له علاقة حميمة بمحيطه الخارجي -أفراداً أو تاريخاً- مما لايسع تجاهلها بأي حال من الأحوال، فالعلاقة مع الغير يترتب معها الأثر حاضراً ومستقبلاً، بحيث لايمكن تجاهلها أو التخلي عنها، وأن يعيش المبادئ والواقعية، التي يصدّق من خلالها ما يؤمن به.

إذ ربما لانجد في قاموس البشرية تمايزاً أو أفضلية لأُمّة دون غيرها، وليس من مصلحة أحد أن يلغي الآخر، بل من مصلحة كل أحد أن يتكامل مع الآخر ويتعاضد معه.

إلا أنَّ الإنسان في عالم اليوم، ووفق معايير المقايسة والمفاضلة، راح ينهل من ثقافة الغير أو بميتافيزيقيا الأصل الكاشف عن نسيان إنسانية الآخر، وتبنيه لمبدأ التمايز والأفضلية والتفوق على أساس ديني أو مناطقي أو عرقي أو لغوي أو ثقافي، وبعبارة أخرى نسيان حق الإنسان الأخر في أن يشاركه فضول العيش الزهيد، وهذا خلاف الفطرة الإنسانية التي جُبلت على الشعور بإنسانية الآخرين، والتعايش السلمي، وأن العالم لايعدو أكثر من فضاء مشترك للإنسانية يسمح بإمكانية تحقيق

التعايش في حدود المجتمع الإنساني بتعددية ثقافاته، واختلاف توجهاته الحضارية، وفقاً لغايات لا تستهدف سوى الإنسان نفسه بوصفه غاية وليس مجرد وسيلة.

هذا الشعور الفئوي القائم على مبدأ الأحقية وتبخيس الآخر هو من يغذي هذا الميل نحو تمجيد الذات بنحته للهالة والعظمة الجوفاء التي راح من خلالها ينسف الحجاب الغيري للإنسانية، وبالتالي أصبح هذا الشعور مدعاة لنفث روح العداء في كل صراع قائم على الأفضلية سواء داخل الحضارة المتجانسة التي تنتمي إليها شعوب تشترك في التاريخ أو اللغة أو الدين أو العرق أو فيما بين الحضارات.

وهذا خلاف ما عهدناه في حضارة الإسلام التي بلغت مبلغاً عظيماً بشتى فروعها وأفانينها من الرقي والازدهار في العلوم والفنون والآداب والفلسفة والشعر، فهي لم تكن بمنأى عن الثقافات بين أبناء المجتمع الإنساني، وأروع من ذلك إقرارها بثقافة الغير والأخذ منه.

فالحضارة الإسلامية لم تستمد قوتها إلا من خلال انفتاحها على الثقافات الأجنبية كالفارسية والهندية واليونانية والنهل منها، مما يؤكد نواياها السلمية، وتعاطيها وفق مقاييس الدين الإسلامي، على العكس من ذلك تتمركز الذهنية الغربية على مفهوم الهيمنة وإبراز النوازع الافتراسية السبعية والأنانية المركزية وتعزيز قوتها في التاريخ وتوكيد الرغبة في التفوق، بمعنى أكثر دقة فإن ذاتية القوة هي المسؤولة عن الرغبة في إقحام وتمكين القوانين الغربية اللاّئكية الدخيلة من السيادة في التعامل والتغلغل في مؤسساتنا الثقافية.

وقد ساعد على فهم بواعثها الحقيقية خلفيات تاريخية وسياسية لا معدى عنها، وليس أقلّها، باقتضاب شديد، خلفيات الإحداق بالعالم الإسلامي ومحاصرته من كلّ جانب عبر أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: (التبشير والاستشراق والاستعمار)[1] التي تواطأت قديماً وحديثاً، إلى جانب دوائر اختصاص أخرى، بطرق ووسائل حديثة، على مناهضة الدّين الحنيف والمتديّنين به في رقعة الوطن العربي

(١) عنوان مؤلف لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نشر دار القلم، دمشق.

والإسلامي، ومحاصرته والتّربص به.

وليس أبلغ، في تعليل نشوب الصّراع الصّليبي القديم الذي ما انفكّت ضراوته تتفاقم في الراهن في شكل تكتّلات غربية معادية للإسلام والمسلمين لا سيما على الصعّيد الرّسمي، ولا أوضح، في الكشف القرآني لحفيظة العداء المرضي المزمن، من الآية الكريمة التي تبيِّنه بأسلوب يعتصر واقعية من الوضع الدّولي الذي يتجنّى على الإسلام والمسلمين بهذا التّصريح الفاضح: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾[سورة التوبة: ٧٤].

أو هذا السؤال الاستنكاري لما يحسدوننا عليه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾[سورة المائدة: ٥٩].

واليوم -وكما أوضحنا سابقنا- تتجدد الرغبة وتنفتح الشهية الغربية؛ لغرورها بالتفرّد بـ(القطبية الآحادية) التي قد تفقدها رشدها في محاولة اقتياد العالم بحسب أهوائها، ولما كان منطق علم الرّيادة أو علم المستقبليات يغلّب في الاستشراف، أن يكون هذا القرن الحالي دينياً أو لا يكون؛ وكلّ الدّلائل تعطي الأرجحية في ترشيح الإسلام بلا منازع، بات واضحاً للإسلام أن يركب صهوة المجد، وأن يكشف النقاب عن كنزه المكنون، وأن يقف بوجه هذه القوى وفق استراتيجيتها المهيمنة، عبر الرصد الدقيق بإنشاء مراكز علمية ذات مواصفات دقيقة من شأنها الاستشراف الدقيق لوقائع المستقبل، استشرافاً علمياً مدروساً، واستباق أحداثه ومفاجآته، والتخطيط لاحتمالاته بوضع النظم والأيدلوجيات في الدعوة لاستشراف المستقبل، واستكشاف السنن الإلهية، والعمل وفقها، على اعتبار أنها توضح جدلية العلاقة الترابطية والتأثير والتأثر المباشرين بين الماضي والحاضر والمستقبل، وضرورة التعرف على المستقبل بهدف بنائه، وكشف الخطوط العامّة للحتميات والوعود الإلهية المستقبلية، وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى بعض الآيات الدالة على ذلك، قال تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، و ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾. وفي مجال

الاستعداد للمستقبل يقول عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾، ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴾. أما الوعود الإلهية والحتميات المستقبلية فيقول تعالى فيها: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، ناهيك عن الآيات الكريمة الأخرى الحافلة بضروب الإحياء النّوعي الرّاقي وديناميكية الفعل الحضاري الرّفيع التي تقتبس من أخلاق الحيّ القيّوم جلّ جلاله والذي: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾[سورة الرحمن: ٢٩]. لا تؤوده حركيّة سننية في هذا الكون الذي أبدعه.

أما الحديث الشريف فهو الآخر يرافق القرآن الكريم مرافقة الظل لشاخصه، فقد جاء ما يفسر هذه الحقائق ويكشف عن المزيد من تفاصيلها منها: «العالم بزمانه لاتهجم عليه اللوابس»[٢]، و«من عرف الأيام لم يغفل عن الاستعداد»[٣]، و«من لم يعرف لؤم الأيام لم يحترس من سطوات الدهر»[٤]، و«من استقبل الأمور أبصر ومن استدبر الأمور تحير»[٥]، و«من لم يحترز من المكائد قبل وقوعها لم ينفعه الأسف عند هجومها»[٦].

سنن التجدد والاستبدال الحضاري في القرآن الكريم

إذا اجرينا تحليلاً مختبرياً للحضارة الغربية ووضعناها تحت مجهر السنن الكونية ونظرية الاستبدال الحضاري في القرآن الكريم، تتراءى أمامنا نقاط عديدة تثبت وبجدارة مآل وانهيار الحضارة الغربية، من تلك النقاط:

١. هناك سنّة إلهية تاريخية عامة تعرّض لها القرآن الكريم كثيراً، وهي أنَّ الأيام لاتبقى على حالها، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾[سورة آل عمران: ١٤٠]، أو كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الدهر يومان، يوم لك،

(٢) الكافي: ج١ ص٢٦ كتاب العقل والجهل ح٢٩.
(٣) التوحيد: ٧٢/ ٢٧، بحار الأنوار ٧٧: ٣٨٠/ ٥.
(٤) كنز الفوائد: ١/ ٣٦٧ و ٢/ ٣٢، ونقل عنه في بحار الأنوار: ٦٨/ ٣٤١ ح١٥.
(٥) غرر الحكم، ٢٦٦.
(٦) غرر الحكم، ٢٩٤.

ويوم عليك، وأن الدنيا دار دول[٧]، فما كان منها لك أتاك على ضعفك، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك»[٨].

فلا يمكن لدولة أو حضارة أن تدّعي جزافاً أنها ستبقى خالدة أبد الدهر، وتحافظ على قوتها واقتدارها ونضارتها إلى أخر الدنيا، ودونك التاريخ لتلحظ ما جرى للحضارات التاريخية التي حدثنا عنها التاريخ، فحينما يحدثنا القرآن الكريم عن الأمم السابقة، وعن حضارتهم، ودرجة الرقي التي وصلوا إليها، نقف حائرين وجلين، بازاء هذه الحقيقة القرآنية، فهو يحدثنا عن قوم عاد وثمود، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

المراد «بالرؤية» هنا، العلم والمعرفة لما وصلت إليه تلك الأقوام من الشهرة بحالٍ أصبح من جاء بعدهم يعرف عنهم الشئ الكثير وكأنه يراهم بأم عينيه ولذا جاء في الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

فقوم عاد كانوا أقوياء البنية، طوال القامة، لذا كانوا يُعدون من المقاتلين الأشداد، هذا بالإضافة إلى ما كانوا يتمتعون به من تقدم مدني، وكانت مدنهم عامرة وقصورهم عالية وأراضيهم يعمها الخضار.

وقد ذكر بعض المفسرين قصة اكتشاف مدينة «إرم» العظيمة في صحارى شبه الجزيرة العربية وصحارى عدن، وتحدّثوا بتفصيل عن رونقها وبنائها العجيب.

فقوم «عاد» كانوا من أقوى القبائل في حينها، ومدنهم من أرقى المدن من الناحية المدنية، وكما أشار إليها القرآن الكريم: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

أيضاً تحدث القرآن الكريم عن قصة سبأ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ

(٧) جمع دولة بالضم ما يتداول من السعادة في الدنيا ينتقل من يد إلى يد.

(٨) نهج البلاغة، خطب الإمام علي، ج٣، ص١٣٤.

غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سورة سبأ: ١٥ -١٦].

فإن عظمة هذه الآية تنبع من أنهم بالاستفادة من خصوصيات موقعهم وطريقة إحاطة الجبال بمنطقة سكناهم وبالذكاء العالي الذي وهبهم الله، استطاعوا حصر مياه السيول -التي لا تخلف وراءها إلا الدمار -خلف سد عظيم، وبذا عمروا دولة رفيعة التمدن، فكانت آية عظيمة أن يتحول سبب الخراب والدمار إلى عامل رئيسي من عوامل العمران والتمدن.

وثمة قصص كثيرة عن «جنة شداد بن عاد» في كتب التاريخ، حتى أنها أصبحت مضرباً للأمثال لما شاع عنها بين الناس وعلى مر العصور.

فهؤلاء كانوا علماء في مجال العمارة والصناعة، إلا أنَّ غرورهم أعماهم عن إدراك الحقائق وتشخيصها أيضاً، فكانوا يدركون الأمور المادية جيداً، ويشخصون عوامل الخلل في أمور العمارة والصناعة، إلا أنهم كانوا عاجزين عن إدراك مواقع الخلل في نفوسهم، لذلك عاشوا الضياع.

نعم، لقد كان أولئك مجهزين بالوسائل المادية، وبوسائل إدراك الحقيقة، إلا أنهم لما كانوا يتعاملون مع آيات الله بمنطق الاستكبار والعناد، وكانوا يتلقون كلام الأنبياء بالسخرية والاستهزاء، لم ينفذ نور الحق إلى قلوبهم، وهذا الكبر والغرور والعداء للحق هو الذي أدى إلى أن لا يستفيدوا ولا يستخدموا وسائل الهداية والمعرفة كالعين والأذن والعقل، ليجدوا طريق النجاة ويسلكوه، فكانت عاقبتهم أن ابتلوا بذلك المصير المشؤوم.

لذلك يتكرر في القرآن القول بأن الإمكانات المادية الكثيرة تبعث على الغرور والغفلة لدى ضعفاء النفس من الناس كقوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ لأنهم بتوفر تلك الإمكانات عندهم يرون أنفسهم في غنى عن الله، غافلين عن العناية الإلهية والإمدادات الربانية المغدقة عليهم في كل لحظة وثانية، ولولاها لما استمروا على قيد الحياة.

وهذا ما نعبّر عنه بالسنن التاريخية، والأمر لم يختص بأمة سالفة دون غيرها،

بل أنه شامل لكل أمة تخرج عن سنّة الله، لذلك يقول في آية أخرى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ [سورة طه: ١٢٨]، وفي آية ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٥].

فهؤلاء وأن جرى عليهم ماجرى إلا أنَّ أثارهم باقية، وكان الناس آنذاك يمرون عليهم في أسفارهم إلى اليمن على منازل قوم عاد الذين كانوا يعيشون في أرض الأحقاف في جنوب الجزيرة، وعلى قوم سبأ الذين لاقوا ذلك المصير المؤلم في أرض اليمن، وعلى مساكن ثمود في أرض يقال لها «حجر» تقع في شمال الجزيرة، المتهدمة الخربة -في سفرهم إلى الشام -، وقوم شعيب في أرض مدين في طريق الشام، وعلى منازل قوم لوط الذين كانوا يعيشون في هذه المنطقة، وابتلوا بأنواع العذاب لكثرة معاصيهم وكفرهم، فأنزل الله غضبه عليهم فجعل عاليها سافلها.

فالقرآن يخاطب -أيضاً -اليوم العالم الصناعي الثري الذي أثملته الإمكانات المادية وملأته بالغرور، ويحذره من نسيان الأقوام السابقة ومما حاق بهم نتيجة ما ارتكبوه من ذنوب، وكأني بالقرآن يقول للمغرورين في عالمنا اليوم: إنكم ستفقدون كل شئ بانطلاق شرارة حرب عالمية ثالثة، لتعودوا إلى عصر ما قبل التمدن الصناعي، اعلموا أن سبب تعاسة أولئك لم يكن شيئاً سوى إثمهم وظلمهم واضطهادهم الناس وعدم إيمانهم وهذه عوامل ظاهرة في مجتمعكم أيضاً.

حقاً إن دراسة تاريخ عاد وثمود وفراعنة مصر، وملوك سبأ وسلاطين كلدة وآشور، وقياصرة الروم، ومعيشتهم الباذخة الأسطورية وما كانوا يتقلبون فيه من نعم لا تعد ولا تحصى، ثم رؤية عواقب أمورهم المؤلمة التي حاقت بهم بسبب ظلمهم الذي قوض أركان حياتهم، فيها أعظم العبر والدروس.

٢. الدورة الحضارية:

كل المقاييس المادية تثبت أن لكل حضارة عمراً من الزمن لا تتقدمه ولا تتأخر عنه، وكما أن البشر يموت كذلك

الحضارة هي الأخرى يعتريها شبح الموت، قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سورة الاعراف: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سورة النحل: ٦١].

أنَّ الأمم والشعوب مثل الأفراد، لها موت وحياة، وأن الأمم تندثر وينمحي أثرها من على وجه الأرض، وتحل مكانها أمم أخرى، وإن سنّة الموت وقانون الفناء لا يختصان بأفراد الإنسان، بل تشمل الجماعات والأقوام والأمم أيضاً، مع فارق وهو أن موت الشعوب والأمم يكون -في الغالب- على أثر انحرافها عن جادة الحق والعدل، والإقبال على الظلم والجور، والانغماس في بحار الشهوات، والغرق في أمواج الإفراط في التجمل والرفاهية.

فعندما تسلك الأمم في العالم هذه المسالك وتنحرف عن سنن الكون وقوانين الخلقة، تفقد مصادرها الحيوية الواحد تلو الآخر، وتسقط في النهاية.

فالقرآن لا يرى ديمومة لأي جيل أو أي فئة، فكلّ هذه المجموعات ليست في النهاية سوى حلقة من حلقات التتالي على مسرح التاريخ، وكلّ مجموعة لا تؤدّي دورها كما ينبغي لابدّ أن تُستبدل لتأتي مكانها مجموعة أخرى قادرة على إنجاز مهامها، ودفع عملية المسيرة إلى الأمام.

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة التوبة: ٣٩].

﴿ هَاأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [سورة محمّد: ٣٨].

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الواقعة: ٦٠ -٦١].

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [سورة المعارج: ٤٠ -٤١].

إن دراسة زوال مدنيات كبرى، مثل حضارة بابل، وفراعنة مصر، وقوم سبأ، والكلدانيين والآشوريين، ومسلمي الأندلس وأمثالها، توضح الحقيقة التالية، وهي أنه لدى صدور الأمر بزوال هذه المدنيات والحضارات الكبرى إثر بلوغ الفساد أوجه فيها لم تستطع حكوماتها أن تحفظ أسسها المتزعزعة حتى ولو لساعة واحدة. ويجب الالتفات إلى أن «الساعة» في اللغة تعني أصغر وحدة زمنية، فربما تكون بمعنى لحظة، وربما تكون بمعنى أقل قدر من الزمن، وإن كانت الساعة تعني في عرفنا الحاضر اليوم مدة واحد من أربع وعشرين.

ففي ضوء هذه السنّة والقوانين الإلهية فإن كل الدلائل تثبت أن شبح الموت قد خيم على الحضارة الغربية، ممّا يمهّد لبروز قوى أخرى ومنها القوّة الإسلامية، وهذه المقاييس في غاية الدقّة إذ تستند إلى مؤشرّات واقعيّة معاصرة، وإلى مؤشرّات تاريخية تتمثّل في استكمال الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية للدورة الحضاريّة والتي تمتّد بناءا على إستقراء شبه كامل لمدّة خمسة قرون -وقد بدأت النهضة الغربية وتحديداً قبل خمسة قرون ومازالت مستمرة إلى يومنا هذا -، وإذا كانت الولايات المتحدّة الأمريكية تعتمد على اختلال توازن القوى لصالحها فإنّ السقوط الحضاري يكمن دائماً في أوج القوّة الحضاريّة.

يقول (شبنغلر) -وهو من كبار الفلاسفة المعاصرين الألمان وأحد المتخصصين في دراسات الحضارة: «إن دورة أية حضارة لا يمكن أن تتعدى الألف عام ومعنى ذلك إن الحضارة الغربية كانت قد بدأت مرحلة الأفول الروحي بدخولها مرحلة الركود والراحة المادية والتي أطلق عليها (بالمدنية) وهي المرحلة التي تسبق انهيار الحضارة وزوالها، بهذا فالحضارة هي العطاء والازدهار الروحي حيث تمر في دورها الأول، أما المدنية فهي مرحلة الشيخوخة والهرم وفقدان الحضارة مناعتها ومقوماتها الروحية وقيمها الأخلاقية). وبهذا يعد (الجانب المعنوي) جوهر الحضارة وروحها وحافظ كيانها ولا يبقى (للحداثة) دور أساس منها، بل يعتبره سبباً لتضعيف مناعتها مع غياب الجانب المعنوي.

٣. اختلال التوازن بين متطلبات الروح والجسد:

الخروج من الواقع المادي الذي فرضته الحضارة الغربية كحل نهائي لجميع شعوب المنطقة، هذا الواقع المفترض من قبل الحكومات الغربية، لا يملأ الفراغ المعنوي، بل ويدفع مستقبل الحضارة الإنسانية نحو مستقبل غامض، فالغرب يهرب من أزمته الحضارية إلى تدويلها وتعميمها.

يقول (جيري فولوي): (إن أميركا بحاجة إلى إنقاذ روحي وأخلاقي إذا كانت لا تريد أن تهلك في القرن العشرين).

يقول الدكتور وجيه كوثراني: «في الغرب الآن يتذمرون من التكنولوجيا لأنها خلقت التلوث وحولت الإنسان إلى آلة وشيّأت الإنسان -أي جعلته شيئاً كسائر الأشياء -»، وهذا يعني إن الغرب متذمر حتى من مدنيته التي تبقت له بعد الابتعاد عن الدين، فهو يبحث حقيقة عن سبيل الخلاص الذي يوازن له بين متطلبات الروح والجسد بمنتهى الدقة، ويتطلع إلى الإسلام واقعاً، وقد جاء هذا في تصريحات بعضهم.

فعندما تصل الحضارات أوج قدرتها، وتصاب بالغرور بقوتها واقتدارها تقترب من اجلها. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة يونس: ٢٤].

إذا تـم أمـر بـدا نقصـه
توقـع زوالاً إذا قيـل تـم

ولذلك يعدّ التمام نذير هلاك.

٤. إننا نعرف من خلال بصائر القرآن الكريم أنَّ كل بناء لم يقم على الإيمان والهدى، ولم يستمد رؤيته من السماء، فمصيره الزوال والاندثار، قال تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[سورة التوبة: ١٠٩]، فكل نظام لايستمد رؤيته وقواعده الأساسية من القرآن الكريم والسنّة

النبوية الشريفة، سوف لن يستمر طويلاً، ولن يستطيع التخلّص من المشاكل التي تعترض طريقه، ومادام مستمداً أفكاره من بنات أفكار البشر، فلن يستطيع أن يصل إلى كماله الذي ينشده.

فالحضارات الغربية مهما بلغت درجة التطور العلمي والتكنولوجي، إلا أنها تفتقر إلى صيانة هذا التطور الحضاري من الزوال والانهيار، ذلك أنها ألغت دور السماء في قوانينها وتشريعاتها، وسعت لإلغاء الدور الغيبي من حياة الناس كما ألغته في أوراق دساتيرها، يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [سورة المائدة: ٦٨]، فأهل الكتاب الذين يمثلون العالم الليبرالي سيبقون ليسوا على شئ مهما تطوروا وتقدموا مالم يرجعوا إلى الله، ويقيموا التوراة والإنجيل، بمعنى أن يحتكموا إليها ويحكموها في حياتهم.

إنَّ الحضارة الغربية التي بدأت مشوارها على أساس إلغاء الدين، والاستهانة بالقيم الإلهية، سوف تدفع ثمن ذلك أجلاً أم عاجلاً، وسوف تعرف أن كلام «نيتشه» -وهو أحد فلاسفة عصر التنوير -الذي قال أنَّ الله مات، وإنَّ الإنسان الأعلى (السوبرمان) سيحل محله، وسينقذ العالم من الشرور، ماهو إلا وهم سيجر عليها الوبال، فإن الله حي لايموت، ولا يمكن لإنسان مهما بلغ من العلم والتطور أن يحل محل الله تعالى، وأن تحلّ شرائعه ومذاهبه الأرضية محل شريعة الله تعالى، ويمكن أن نذّكر هنا بقول برنادشو، الذي قال: «إنَّ الحضارة تسقط في اللحظة التي تكون فيها قوة الإنسان أشد من قوة الدين».

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [سورة طه: ١٢٤].

٥. الانحطاط الروحي والمسخ الأخلاقي:

كل حضارة تتعرّض إلى حالة المسخ الاخلاقي، فإنَّ مآلها إلى الزوال والاندثار، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [سورة الاسراء: ١٦]، فعلامة زوال الحضارة

تحكم المترفين(الرأسماليين) وإشاعة الفسق والفجور في ارجائها.

فالمسخ الاخلاقي نذير شؤم ينذر أهله بالخطر الإلهي، وعلامة قرب الأُمم من الهلاك فسقها وفجورها.

٦. الظلم و سنّة الانحدار والتراجع والتقهقر الحضاري:

فالظلم والترف والفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي، والخروج من دائرة العبادة الربانية، كلها عوامل وأسباب تؤدي إلى السقوط والانحدار. يقول تبارك وتعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

وأعظم ظلم يمكن للإنسان أن يقترفه هو الشرك قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، لأنه تشويه لفطرة الإنسان وإغراقها في المعاصي والآثام وتكذيب لحقائق التوحيد.

فالمجتمعات إذا نأت وابتعدت عن قيم الدين، فستفسد فساداً يقود إلى هلاكها. وهذا يعني أن المجتمعات دائما بها حاجة إلى مصلحين يمارسون عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفادي الهلاك والانكسار. أما إذا غاب المصلحون عن المجتمع، فإن ذلك يوقف عملية العمران الحضاري، ويجعل المجتمع بأسره عرضة للفساد المفضي إلى الهلاك سواء كان ذلك فسادا في الطبيعة المادية أو العلاقات الإنسانية أو فيهما معا.

هذه الأسباب والمسببات إذا تفاقمت وتكاثرت على الأمة المتهالكة، سوف يوردها الغصص، والمر الزعاف، فيتركها جاثمة تنتظر الموت، وتستشري بها مسببات الهلاك الداخلي، والفناء التدريجي. فإذا لم يحدث التغيير من الداخل لتفعيل حياة الأمة، يأتي العدوان الخارجي ليزيل هذا الركود، ويجهز على الأمة حقبة من الزمن، لكي تأتي أجيال أخرى تبدأ رحلتها جديدة مع الحياة. وذلك، لأن الأمم يرقب بعضها بعضاً. فإذا وجدت أمة قوية أخرى ضعيفة متآكلة، لم تتردد في سحقها.

وصفوة القول هي أن كلمة الحق، وفتح باب الحرية للناس، لكي ينصحوا بدلاً من أن يصفقوا، هو الذي يطيل عمر الأمة، ويمدها بالبقاء، والأخطاء المتراكمة، والأمراض المزمنة، هي التي

تزيل الملك في النهاية. وتذهب بالعمران كما ذكر ابن خلدون، ولو تم علاجها قبل أن تستفحل، وتقبل الساسة ما يقوله الناصحون لهم وليس المصفقون والمهرجون، لكانت ممالكهم تقوم على أسس ودعائم صلبة تستعصي على الرياح العاتية، ولا تجرفها الرمال.

النظرية الإسلامية ورهان الانتصار

بعد أن استطلعنا جماً غفيراً لا يستهان به من القوانين الاجتماعية التي طرحها القرآن الكريم تحت عنوان «استشراف السنن التاريخية» وآثرها الواضح على الأفراد والأُمم والمجتمعات، وأنها قوانين مطرّدة لا تقبل التساوم ولا تقبل التخلف عن لوازمها ولا تقبل التحويل أو التبدل بتبدل المكان والزمان.

كما أنَّ لا مكان للصدفة أو العشوائية فيها فهي دقيقة محكمة، ومتحركة سيّالة وحيّة وليست جامدة، بحيث يشعر الإنسان عندما ينطلق في حركة التاريخ أنه حتى وهو يمارس الفوضى لا يمكن للفوضى إلا أن تكون خاضعة لنظام، باعتبار أنَّ هناك سنناً تاريخية تحكم حركته وتمثل الخطوط العامة لحركة الإنسانية بطريقة شعورية أو لا شعورية، وهذه السُنَنُ ليست مستقلةً في حركتها، بل هي معلولات لعلة حقيقية ومرتبطة بِعَالَمٍ خاص بها وهو عالم الغيب والشهادة.

وأنَّ هذه القوانين الحتمية التي أودعها الله في الكون وحرّكها في الحياة ليست دائماً حالة شعورية في الكائن الحي، بل قد تنطلق لتحكمه من خلال نظام دقيق يمكن أن يكون للإرادة دوراً، بحيث يتحرك في السنّة التاريخية لتكون إرادته جزءاً من هذه السنّة.

وبعبارة أوضح، متى ما استشعر الإنسان فقره واحتياجه إلى هذه العلة الحقيقية، عند ذلك تتبلور الفكرة في كيانه، وأنه جرم صغير يؤثر ويتأثر تبعاً لانصياعه إلى قوانين السنن التاريخية، وأنها تمثل جزءاً من سلوكه وحركته، كـ(فرد، أو جماعة، أو أمة) عند ذلك سوف يحدّد مسيرته النهائية، التي تكشف له الحكمة من وراء الأحداث، وتبين له الأهداف من وراء الوقائع، ويستشرف خط السير وفقاً للخزين العلمي لتجربة الماضي،

ليحقق طموحاته في الحاضر والمستقبل البعيد، وفقاً لمعطيات الحاضر والتحديات المستقبلية التي تفرضها طبيعة النمو والتحول والتطور والطموح.

هذه المعطيات يمكن دراستها وفق القوانين والسنن التاريخية، واستظهار قانون التحدّي للسنن التاريخية، وهل يمكن للإنسانية أن تتحدى النواميس والقوانين الطبيعية.

كما هو واضح أنَّ القانون العلميّ؛ لا يقبل التحدّي من قبل الإنسان، لأنه من قوانين الكون والطبيعة، فلا يمكن للإنسان أن يتحدّاها، أن ينقضها، أن يخرج عن طاعتها، يمكنه أن لا يصلّي لأنّ وجوب الصلاة حكمٌ تشريعيٌّ وليس قانوناً تكوينيّاً، يمكنه أن يشرب الخمر، لأنّ حرمة شرب الخمر قانونٌ تشريعيٌّ وليس قانوناً تكوينيّاً، لكنّه لا يمكنه أن يتحدّى القوانين الكونيّة والسُنن الموضوعيّة، مثلاً لا يمكنه أن يجعل الماء لا يغلي إذا توفّرت شروط الغليان، لا يمكنه أن يتحدّى الغليان، أن يؤخّر الغليان لحظةً عن موعده المعيّن؛ لأنّ هذا قانونٌ، والقانون صارمٌ، والصرامة تأبى التحدّي.

ولكن مسألة التحدي يمكن تحجيمها بحسب القوة والتطرّف ضد القانون التكويني المرتبط بالقانون التشريعي الإلهي الذي يتحكّم بالوجود الإنساني، فكلما تمادى الإنسان في غيه، ووقف نداً في قبال القانون التكويني، كان الرّد سريعاً وماحقاً من قبل السنن الإلهية ضد التحدّي، فينهيه ويزيله من الوجود.

مثلاً قوم لوط، قد تحدّوا اتجاهاً موضوعيّاً له آثار تكوينية، فالطبيعة الإنسانية جُبلت على الأنس والانسجام الروحي والفسلجي بين الذكر والأنثى، وإدامة النوع الإنساني عن طريق هذا الاتصال، ضمن إطار من أُطر النكاح الشرعي الذي أقرته كتب السماء.

هذا التحدّي لهذه السنّة، يؤدّي إلى أن يتحطّم المتحدّى؛ فالمجتمع الذي يتحدّى هذه السنّة يكتب بنفسه على نفسه الفناءَ؛ لأنّه يتحدّى ذلك عن طريق ألوان أخرى من الشذوذ التي رفضها هذا الاتجاه الموضوعيّ، وتلك الألوان من الشذوذ تؤدّي إلى فناء المجتمع وخرابه.

فالعقاب هنا ليس بمعنى العقاب الذي ينزل على من يرتكب مخالفةً شرعيّةً، على يد ملائكة العذاب في السماء في يوم القيامة، ليس هو ذاك العقاب الذي ينزل على من يخالف القانون على يد الشرطيّ، يضربه بالعصا على رأسه، وإنّما العقاب هنا ينزل من سُنن التاريخ نفسها، تفرض العقاب على كلّ أمّةٍ تريد أن تبدّل خلق الله سبحانه وتعالى، ولا تبديل لخلق الله، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[سورة الحج: ٤٧].

ولكن هذا العقاب يتوقف سرعة وبطئاً تبعاً لقوة التحدي لهذه السنن التكوينية، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[سورة الشعراء: ١٦٠-١٧٤].

في حين تحدّى قوم نوح البطء نسبياً للسنن التكوينية والتشريعية حيث لبث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهذه مدة طويلة نسبياً قياساً إلى ما سبق من سرعة عقاب قوم لوط، وإنْ كان اليوم عند الله سبحانه كألف سنة مما نعد.

وأعتقد أن تحديهم كان تحدياً متوسط التطرف ضد السنن الإلهية بحيث جاءهم الطوفان بعد ألف سنة تقريباً من العصيان والتحدّي.

بقاء الأمم ببقاء صلحائها:

كما أن عنصر الفساد الذي تتصف به مجموعة من المترفين يعد باعثاً حقيقياً لهلاك الأمم، وهذه سنّة إلهية مطردة لا تقبل التأخير والمساومة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[سورة الإسراء: ١٦]، كذلك عنصر الصلاح إذا غلب

على فئة من الناس، فسوف تسعد به الأمم ويعمها الصلاح والإصلاح في جميع ربوعه، يذكر أن الصلاح قد يأتي في فترات حرجة، وفي وقت قارب وقوع الأمر الإلهي، ولكن إذا تدارك أهله الأمر، وسارعوا إلى مغفرة من الله، فسوف تنقلب الأمور لصالحهم، فالفساد وحده لايضمن الهلاك مع وجود فرد واحد يساهم بنشر الفضيلة والصلاح، فمن الممكن عقلاً أن يدور المرء مائة وثمانين درجة باتجاه الصلاح كما فعل قوم يونس، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[سورة يونس: ٩٨] فلو انعدم الصالح والمصلح في المجتمع فإن من سنّة الخلق أن يحرم ذلك المجتمع حق الحياة ويهلك عاجلاً.

جدير بالذكر أنَّ القرآن الكريم قد وضع الأُسس والخطوط العريضة التي من شانها إرساء العدالة في ربوع المجتمع البشري، وحذّر من التلاعب بالقوانين الإلهية، وجرّها لمصلحة فئة منتفعة، لأجل ذلك سارع إلى ارسال الأنبياء والمرسلين والمصلحين، للوقوف والحد من سطوة الجبابرة والمستكبرين، وإرساء قواعد العدل الإلهي، وتشكيل المجتمع العادل، لأن ملاك العدل الإلهي هو رفع الظلم، وإنزال الجزاء العادل بالظالم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[سورة الحديد: ٢٥].

لذا فقد كان الهدف من الرسالات السماويّة الّتي جاء بها الأنبياء والمرسلون ونزول الكتب السماويّة عليهم، هو إقامة العدل والقسط بين أفراد المجتمع الواحد.

إلا أنه وللأسف الشديد وبالرغم من التعاقب المكثف للأنبياء والمرسلين، الذين ضحوا بأنفسهم من أجل إحلال القوانين الإلهية، ونشر العدالة السماوية، نجد أن القرآن يحدّثنا عن وجود هذه الفئة الظالمة التي مازالت تعترض المشروع الإلهي، وتحد من جغرافيته، دون التوسع والانتشار، والتاريخ خير شاهد على ذلك، فالتمايز الطبقي مازال يضرب بجرانه في الكثير من المجتمعات البشرية على طول الخط التاريخي.

ونرى الطبقات المسحوقة، تحت سطوة وظلم الجبابرة، قد أثقلت كواهلهم بالحروب والويلات، والخراب والدمار، فأبيدت أمم وشعوب، واستعبدت أجيال تلو أجيال، فضجت الأرض تستصرخ بارئها بما تئن من جراح، وتستغيث من مباضع الحراب والسيوف والرماح، ولولا بوارق أمل وومضات، تشع بين الحين والحين من هدي السماء عبر الرسالات، وإمداد التابعين بالصبر والإيمان وسيل الشحنات، لما كان للحياة مذاق فتطاق، ولا للعيش طعم واشتياق.

إذن فلابدّ -بحسب التخطيط الإلهي- من إقامة العدل، والسلام في العالم، بعد انتشار الظلم والجور والفساد في ربوع الأرض وأرجائها، وهو ما نشاهده ونراه بالحس والعيان في كل حدب وصوب، وهذا ما يتطابق مع ما تنبّأ به رسول الله ﷺ بقوله: «تملأ الأرض ظلماً وجوراً، ثم يخرج رجل من عترتي، يملك سبعاً أو تسعاً، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً»[9]، فكما أنّ الأرض مُلئت وستُملأ بالجور والفساد والظلم، لا بدّ لها من يوم تُملأ فيه عدلاً وقسطاً، على يد الإمام المهديّ المنتظر عليه السلام.

إلاّ أنّ النقطة الجديرة بالاهتمام هي أنّ تحقق هذا الهدف، وهو إقامة العدل والقسط في الأرض، يتوقف على توفر شرائطه التي أراد الله تعالى بحكمته أن تكون من الطريق الطبيعي لا الإعجازي، وهذا ما جرت عليه السنن الإلهية في هذا العالم، فقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠ -١٤٢] وغير ذلك

(٩) سنن أبي داود، السجستاني: ج٤ ص٧١٢ ح٤٢٧٦؛ مسند أحمد، أحمد بن حنبل: ج٣ ص٢٨ ص٣٦ ص٧٠؛ المستدرك الحاكم: ج٤ ص٥٥٧؛ وانظر مجمع الزوائد: الهيثمي: ج٧ ص٣١٤، وقال فيه: «رواه الترمذي وغيره باختصار، رواه أحمد بأسانيد، وأبو يعلى باختصار، ورجالها ثقات»؛ وانظر: المصنف: الصنعاني: ج١١ ص٣٧٢-٣٧٣.

من الآيات المباركة، التي تكشف عن أنّ التخطيط الإلهي لجريان السنن في هذا العالم مبنيّ على السير الطبيعي للبشرية، إلاّ في الظروف الخاصّة والاستثنائية، التي تقتضي فيها الحكمة الإلهية إنجاز الهدف والوصول إليه عن طريق الإعجاز وخرق المعتاد، وذلك كإثبات أصل نبوة الأنبياء مثلاً.

وإقامة العدل على هذه الأرض جاء ضمن ذلك الإطار، فلكي يتحقق على أرض الواقع ويحين أجله، لابد من اكتمال جميع شرائطه، وعلى ضوء ذلك كانت غيبة الامام المهدي(عليه السلام) جزءاً من هذا التخطيط والحكمة الإلهية، من أجل أن تكتمل باقي الشرائط لظهور الحق وإقامة العدل، تلك الشرائط التي يتحقق معظمها في أحضان الغيبة.

ضرورة القيادة العادلة

إنَّ تحقق المجتمع الخليفة يوفر للإنسان فرصة التكامل الروحي والمعنوي، كما يوفر له فرصة التكامل المادي، فإنَّ هناك تلازماً بين الخلافة والكمال المادي، كما أنَّ هناك تلازماً بينها وبين الكمال المعنوي، فمّتى تحققت الخلافة بما تحمله من أقصى مراتب العبودية والإيمان والعمل الصالح، نزلت الخيرات واتسعت البركات، وانعدمت كل دواعي الشقاء.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[سورة الأعراف: ٩٦]. ويقول: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[سورة نوح: ١٠ -١٢].

ويتحدّث عن أهل الكتاب فيقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[سورة المائدة: ٦٦]. وهذا ليس مختصاً بأهل الكتاب وإنما بجميع البشر ومنهم أهل القرآن، فلو أنَّ أهل القرآن أقاموه في حياتهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، والمقصود أنَّ الأُمّم لو احتكمت إلى الدين والكتب السماوية وطبقتها في حياتها وسارت على خطاها فإنها سوف تنعم نعمة لا مثيل لها أبداً.

وذلك بخلاف ما لو خالفت أوامر الله تعالى فإنها سوف تشقى شقاء ليس بعده شقاء، وهذا هو البرنامج الذي وضعه الله تعالى للبشرية عندما افتتحت حياتها على الأرض بخروج آدم عليه السلام من الجنة. يقول تعالى: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ [سورة طه: ١٢٣]. فإذا أرادت البشرية أن تبتعد عن الشقاء في هذه الدنيا فلن تحقق لها المذاهب الأرضية ذلك، لا الاشتراكية ولا الرأسمالية ولا غير ذلك، وإنما السبيل الوحيد هو إتبّاع هدى الله تعالى.

قضية الإمام المهدي رؤية سننية

ممّا لا ريب فيه أن لله تعالى سنن وقوانين تاريخية اجتماعية سيّر عليها البشرية منذ يومها الأول وإلى آخر لحظة في حياتها. فقد شاءت حكمة الله تبارك وتعالى أن يكون هذا العالم عالم الأسباب والمسببات، وأن تجري الأمور فيه (في بعدها الطبيعي والبشري) وفق سنن وقوانين وضعها بحكمته جل وعلا.

فكما أننا نرى الطبيعة محكومة لقوانين فيزيائية وكيميائية صارمة، وهذه القوانين لا تتبدل ولا تتحول، فالحديد يتمدد بالحرارة، والماء يغلي عند درجة مئة مئوية، في كل زمان ومكان منذ آدم وليومنا هذا، فكذلك المجتمع الإنساني محكوم لسنن اجتماعية تاريخية لا تتبدل ولا تتحول. يقول تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾.

ويقول أيضاً: ﴿ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾.

وهذه السنن الإلهية لا تلغي إرادة الإنسان واختياره كما حقق في محله من علم الكلام، وإنما هي متسقة مع الفعل والإرادة الإنسانية. ولنضرب لذلك مثالاً من السنن التكوينة، فالقانون التكويني يقول إن من شرب السم مات، وأنَّ من رمى بنفسه من قمة جبل سقط على الأرض وتحطم، ولكنَّ هذا القانون لا يلغي إرادة الإنسان، فبإمكان الإنسان أن يشرب السم أو لا يشربه، ولكنه إذا شربه جرى عليه القانون ومات، وبإمكانه من

البداية أن لا يلقي نفسه من شاهق، ولكنه إذا فعلها فسوف يتوزع أشلاء، كما أن بإمكانه أن يغير مصيره حتى مع سقوطه من خلال استخدام سنّة أخرى كأن يفتح مظلة مثلاً. هذا في الجانب التكويني.

كذلك الحال في البعد التشريعي، فالدين مثلاً لا يُفرض على الناس قسراً، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ويقول كذلك: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾. ويقول أيضاً: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾. ويقول: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾.

فالمجتمعات البشرية غير مقسورة ولا مجبورة على الدين، ولكنها إن آمنت بدين الله واتبعت هداه سعدت في الدارين، وإن تولت عنه شقيت في الدارين كذلك.

قال تعالى﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. وقال: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾).

وعملية التغيير في المجتمع الإنساني بأبعادها المتنوعة غير خارجة عن هذه السنن الإلهية الكريمة، وغير خارجة عن دائرة الفعل الإنساني كذلك. ولهذا يقول عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾. فسنّة التغيير الإلهية مرتبطة بالتغيير الإنساني نفسه.

وقضية الإمام المهدي -بوصفها أكبر دعوة تغييرية في التاريخ، فانها خاضعة لهذه السنن المرتبطة بالفعل الخارجي والشروط الموضوعية. والله -تعالى- أعلم.